

العربية معجزة القرآن

وأنشأها من عوامل انتشار الإسلام

للدكتور عبد السلام التهماني

كلية الحقوق - جامعة حلب - سوريا

كل ضمانات الحياة الحرة الكريمة ، فأمنت بدعوته وانقادت لشريعته .

ونحن لا نحصر الشواهد على ما نقول من واقع بيئتنا التي نعيش فيها وإنما نستمد الشواهد من جميع البلاد والأقاليم التي انتشر فيها الإسلام . فما فتحة العرب المسلمون كان انتشار الإسلام فيه من أسباب انتشار اللغة العربية ، وما انتشرت فيه اللغة العربية كان من أسباب انتشار الإسلام .

ولا ريب أن وهن اللغة العربية وضعفها قد أدى إلى وهن الوعي الإسلامي وضعف الوازع الديني . فاللغة العربية الخاصة ، هي التي تنقل إلى القلب صور المعاني الرائعة التي تتجلى في تراث الرسالة الإسلامية ، فتتحول إلى وازع يزرع الإنسان عن الشر ويحضه على الخير ، فإذا وهنت لم تعد قادرة على نقل تلك الصور إلى القلب وتبليغها معانيها ومقاصدها ، فيخلو من الوازع .

إن أحياء اللغة العربية ضرورة لازمة لاستيعاب معاني القرآن وتحقيق غاياته ، وهو ضرورة لأحياء الوازع الذي يزرع القلوب عن الضلال . وهذه الضرورة لا تقتضيها مصلحة المسلمين فحسب ، وإنما تقتضيها مصلحة العالم الذي فسد يقينه وتحكمت بمصيره القوى الطاغية التي لا يرد لها وازع ولا يصددها عن الشر رادع .

ومن أجل ذلك يجب أن تحتل اللغة العربية مكان الصدارة في جميع البلاد العربية والإسلامية .

الإسلام مرتبط باللغة العربية ارتباطاً وثيقاً ، وهو عامل أساسي من عوامل انتشارها ، ذلك أن القرآن الكريم ، وهو رسالة الإسلام إلى الإنسانية ، قد نزل بلسان العرب الذين اختارهم الله لتبليغ رسالته ، ولا يتأتى فهم مقاصده فهماً سليماً إلا عن طريق اللغة العربية .

إن اللغة العربية ليست لغة تعبير فحسب وإنما هي إلى جانب ذلك لغة إيقاع وتصوير ، وقد كانت معجزة القرآن في الصور البيانية الرائعة التي صقلت معانيه وجلت مقاصده ، فاستأثرت باحساس العربي وملكت عليه لبه وآمن منقاداً لسحرها الحلال ، وهي التي فجرت طاقاته ودفعته إلى نشر رسالة الإسلام .

وقد أثار الفتح الإسلامي دهشة الشعوب التي كانت تعيش في ظل نظم سياسية استبدادية ، وتبدلت في نظارها صورة العربي التي كانت تعرفه قبل الإسلام ، ورائت في سلوكه ودعوته ما حجب إليها الإسلام ، فأسلم منها من أسلم ، وعاش في ظله من آثر البقاء على دينه . وكان لابد لتلك الشعوب أن تتعلم اللغة العربية لتفهم سر الدعوة الجديدة التي بدلت من مفاهيم الحياة وتستكمل إيمانها بمعرفة مقاصدها . ومن هنا كان الإسلام عاملاً أساسياً من عوامل انتشار اللغة العربية .

كذلك كان انتشار اللغة العربية من أسباب انتشار الإسلام ، ذلك لأن معرفة هذه اللغة دلّت على المعرفة بالقرآن ، باعتباره أسمى مورد من مواردها وأعذب وأقرب إلى النفس الإنسانية ، وقد وجدت فيه

ان اللغة العربية فى الافطار الاسلامية لا تواجه اللغات القومية فحسب بل تواجه ازدياد نفوذ اللغات الاجنبية الحية فى تلك الافطار ايضا ، كالانجليزية فى آسيا والفرنسية فى افريقيا . وغالبية المسلمين من غير العرب لا يفقهون شيئا من آيات القرآن اذا تلاها فى المصحف ، بله الذين يقرؤونها خلال طقوس الحج وسائر العبادات بالحروف اللاتينية .

ان العلاقة بين اللغة العربية والعقيدة الاسلامية طرا عليهما اليوم تبذل واضح، فلم تعد علاقة تلازم تقتضى بالضرورة ان يكون ازدهار العربية نتيجة حتمية لتعاظم الوازع الدينى ، او ان خمول هذه اللغة العربية يستلزم حتما اضمحلال الوازع الدينى . وبتعبير آخر ان **العلاقة بين اللغة العربية والاسلام فى طابعها الراهن لم تعد علاقة سببية تبلغ حد التفاعل والتاثير المتبادل** . فعلى الرغم من الترابط بين العربية والاسلام تبعا لجذور تاريخية باقية ومتجددة فانها يسييران فى **طريقين متوازيين** قد يلتقيان فيعتانقان او يفترقان فيتباعدان ولكنهما **بأية حال لا يتعارضان** .

ان الظاهرة المميزة للاجيال العربية الحديثة تجلئ فى محبتهم المطردة للغة الضاد ، وغيرتهم عليها ، وتفانيهم فى خدمتها ، شأنهم فى ذلك شأن السلف الصالح ، مع اختلاف فى طبيعة الحافز بين الامس واليوم . فعلى حين كان الدين وخدمته العامل الفعال فى الاقبال على العربية غدت النزعة الوطنية والعاطفة القومية فى هذا العصر الدافع الرئيسى فى سبيل رفع شأن العربية . وهذا ما يفسر ضآلة مساهمة المسلمين من غير العرب فى مضمار الدراسات العربية بالنسبة الى ما كان عليه حالهم فى سالف العصور وفى مقابل ذلك نلمس - منذ فجر النهضة حتى اليوم - لدى العرب غير المسلمين وبخاصة فى لبنان وسوريا والمهجر احتفالا كبيرا بالعربية وتراثها .

والحقيقة الساطعة التى تثلج القلب ان **العربية فى ازدهار مطرد داخل وطنها وبين اهلها مما يبشر بانطلاقها الى آفاق ابد لا تحد** . **فالهوة بين العامية والفصحى آخذة فى الضيق**، وهذا واقع نلمسه لدى مقارنة عامية هذا الجيل فى القطر السورى مثلا بعامية الجيل الذى قبله ، بل ان هذا الفارق ليبدو واضحا بين لغة الآباء ولغة الابناء تحت سقف البيت الواحد ، وذلك بفضل انتشار التعليم على نطاق واسع ، وذبوع اجهزة الاعلام كالصحافة والاذاعة والتلفزة وتغلغلها للمطرد فى اوساط الشعب . يضاف الى ذلك ان تجربة

التعريب الرائدة فى سوريا خلال نصف قرن مضى من الزمن قد اثبتت نجوعها واتاحت للعربية بفضل فيض المصطلحات العلمية الموضوعية ، وتدريس الطب باللسان العربى ... مزيدا من **الانفتاح على الفكر العالمى** ومنجزات الامم الاخرى . ونحن نلاحظ بثقة واعتزاز ان **لغة الضاد ماضية قدما فى كل يوم لتغدو اللغة الرسمية** فى كثير من المؤسسات العالمية والهيئات الدولية ، ولتتربع بجدارة الى جانب اللغات القليلة السائدة فى ارجاء المعمورة . وان اقرار العربية مؤخرا لغة رسمية فى منطقة اليونسكو الدولية يعد نصرا مبينا فى سلسلة انتصارات هذه اللغة العريقة الخالدة .

غير ان الطريق ما زال شاقا وطويلا امام العربية حتى تتبوا المنزلة الرفيعة التى نطمح اليها بين سائر اللغات الحية المتطورة . وما ذلك الا لان **ضعف اللغة رهن بتخلف اهلها** ، وازدهارها منوط بتقدمهم .

ان المرحلة الحضارية الحاضرة التى تعيشها الامة العربية تقتضى منا ان نفتح عيننا على لفتنا القومية وعينا اخرى على اللغات الاجنبية السائدة . اما **مباغتتنا فى فضل العربية** ومزاياها الفائقة واشاحة وجوهنا عن مزايا بعض اللغات الاخرى فنزعة سلبية ضارة قوامها استعلاء غير واقعى، وقد آن لها ان تنقضى بانقضاء مرحلة تحقيق الذات التى تجاوزها العرب ، لان **مثل هذا الشعور قد يودى بفكرنا الى العزلة عن المعطيات الحضارية** لدى سائر الامم . ان **لفتنا على اصالتها وطاقاتها الذاتية الخلاقة ما تزال قصيرة الباع** متخلفة عن بعض اللغات العالمية فى **مضمار العلوم والتكنولوجيا** . كما ان انصرافنا فى **مقابل ذلك عن اللغة العربية** فى هذا المضمار امتهان لانفسنا وحكم جائر على لفتنا القومية بالمعجز والمعم .

ان غالبية الامم تطمح بداب الى ان تجعل لفتها القومية هى السائدة فى وطنها . وهذه الغاية بالنسبة الينا ضرورة حيوية وحتمية ، لانها تنبع من شعورنا بشخصيتنا وايماننا بحقيقتنا وادراكنا لاصالتنا وثقتنا بلفتنا . غير ان هذا كله يشغى الا يحول بيننا وبين **الانكفاء على اللغات الاجنبية** ما دام هذا الانكفاء ضروريا لنا فى وصلنا بتطور الانسانية الخلاق . هذه مرحلة قد تطول ، ولكنها لا بد ان تبقى فى نظرنا مرحلة ، وان نضع نصب اعيننا ضرورة تجاوزها فى قابل ايماننا الجادة ، حين تستطيع العربية الوقوف على قدميها ، وتغدو الوعاء الرحيب لجمع المناسز الفكرية والمعطيات الحضارية .